(١٩)

نحو أمة قارئة

نبدأ حديثنا في هذا الموضوع بقول «فولتير» : الأمم القارئة هي الأمم الفائدة ، وعبارة «توماس جيفرسون» الذين يقرءون فقط هم الأحرار؛ لأن القراءة تطرد الجهل والخرافة ، إن القراءة تدخل في كل أنشطة الحياة اليومية ظهرت ضرورة أن يكون الفرد قارئًا ، قادرًا على الانغماس في أنشطة الحياة اليومية ، وليس ببعيد ذلك اليوم الذي سوف يضطر فيه كل شخص أن يقرأ تعليمات حجز غرفة في فندق بنفسه ، وأن يقرأ تعليمات حجز تذكرة في قطار ، وأن يقوم بذلك بنفسه وأن يتبادل المعلومات مع الآخرين عبر الشبكة الدولية للمعلومات ، إن عاجلاً أو آجلاً ، لا مكان لغير القارئين في مجتمع الألفية الثالثة ، ولم يعد من السهل على أي شخص أن يجد عملاً مجزيًا ما لم يكون قادرًا على أداء مجموعة من الأعمال ، وما لم يكن قادرًا على السيطرة على مهارات عملية تتطلب القراءة والمزيد من القراءة ، يستوي في ذلك الشخص في المجتمعات المتقدمة أم في المجتمعات التي تحاول اللحاق بهذه الدول .

هل من المعقول أن نظل متفرجين على العالم الذي يعج بالنشاط والحركة من حولنا؟ هل من المعقول أن نظل بمنأى عن أسباب الحضارة؟ ألا من سبيل إلى رأب الصدق وتجسير الفجوة بيننا وبين غيرنا من الأمم القائدة؟ لابد من أن تتحول من أمة تستقبل العالم بأذنيها ـ فقط إلى أمة تستقبل العالم بالنظر والفكر والتدبر ، أي نقرأ ونسمع ونتبادل المعرفة والمعلومات مع غيرنا ، وألا يقتصر ذلك على الصفوة وأبناء القادرين وألا يقتصر ذلك على نسبة من المجتمع تنمو ببطء شديد ، لا مكان في هذا العالم السريع لأمي بل لا مكان لمن تعلم ثم توقف عن التعلم .

ومن أطرف ما قرأت عن العلاقة بين القراءة والتغير ما كتبته مؤسسة «سكوت فور سمان» Scott Foresman في معرضها للكتاب في المؤتمر الدولي للقراءة الذي عقد في «سانتيانجو» ١٩٩٧م تحت عنوان «**سوف أغير العالم**» .

- سوف أغير العالم بطفل في وقت ما .
- سوف أعطى الطفل هدية لا تنتهي لذاتها أو فائدته أبداً هدية تجعل العالم بين يديه وتجله ـ أيضًا ـ أثرى وأحلى .
- هديتي هي القراءة .
- سوف أفتح العينين وأوقظ الأحلام بالقصص التي تجعل الأطفال يشعرون وينمون ، ويفكرون .

لا شيء يوقفني ، ولن أسلو ذلك ، لأنه قلبي يعرف معنى القراءة ، وأي قوة هي !!

ويؤيد ذلك ما ذكر في دراسة عنوانها «**الدور القوي لأساليب القراءة**» . The Power of Reading Styles

وقد أجرى هذه الدراسة المعهد القومي الأمريكي لأساليب القراءة "NRSI" National Reading Styles Institute في فبراير ١٩٩٧م لقد ذكر في هذه الدراسة أن مستويات التحصيل في القراءة بالولايات المتحدة تقع دون المستوى المطلوب في مجال الأعمال وفي مجال التعليم الجامعي وفي المجال الدولي ، والمنافسة الدولية .

وتذكر الدراسة تعليقًا على ذلك :

إن المستوى العالي في القراءة أمر جوهري وأساسي للانخراط في أي عمل في المجتمع الأمريكي ؛ ومن ثمَّ فإن المستوى المتدني من القدرة القرائية يؤدي إلى ضياع الفرص الجيدة في الحياة لعدد لا يحصى من الشباب .

إن الدراسة الحالية تشير إلى أن أطفال اليوم يقرءون قليلاً جدًّا سواء في المدرسة أم في خارجها ، والسبب في ذلك فيما يبدو أن مواد القراءة المتاحة في البيت قليلة وإن استخدام المكتبة قل عن ذي قبل .

لاحظوا أيها السادة أن هذا يقال في الوقت الذي يقرأ فيه طفل الصف الأول الابتدائي في المدرسة الأمريكية عادة ما لا يقل عن خمسين كتاباً في السنة الدراسية ، علاوة على كتابة تقرير مختصر عن كل كتاب ، أو كتابة تعليقات أو تعقيبات ، وتبلغ صفحات هذه الخمسين كتابًا ما لا يقل عن ألفي صفحة .

في حين يقرأ أطفالنا في هذه السن «الصف الأول الابتدائي» مائة صفحة تقريبًا قراءةً معتمدة على المدرسين ، أو الوالدين وهي قراءة لا تتجاوز تعرف الكلمات والجمل أي لا تتعدى شكل الكتابة إلى المعنى ، الفرق كبير - ليس فقد في الكم - بل في الكيف كما أشرنا والخطير في الأمر أننا لا نشكو بالذات من الناحية الرسمية من ضعف أبنائنا ، وتدني مستواهم بل على العكس من ذلك نمدح كثيرًا أنفسنا ، ونرى أننا في مستوى يحسدنا عليه كثيرون !! هل هذا منطق مقبول ؟

إن قلق الأمريكان من ضعف مستوى أبنائهم في القراءة يؤدي إلى مزيد من البحث والدراسة ورفع المستوى الدراسي والمعرفي للأبناء ، أما رضانا عن مستوانا فإنه لن يخلق إلا مزيدًا من «التراكمات» التي قد يصعب علاجها في المستقبل القريب أو البعيد ومن نافلة القول أن نذكر هذا المبدأ الخطير في «التغير الاجتماعي» ، إن هناك علاقة مطردة بين القلق والتطور في الحياة العامة والخاصة والعكس بالعكس ، فالأمة الراضية الساكنة ترى دائمًا أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ويكون وأنه لا داعي للقلق ، فنحن دائمًا بخير ، والأمر على ما يرام !!

إن الشباب يحتاجون أكثر من أي وقت مضى مزيدًا من الفرص الحياتية التي تساعد القراءة على جعلها أمرًا ممكنًا ، إن الشباب ينبغي أن تتاح لهم الفرص لكي يروا القراءة أمرًا ممكنًا سهلاً وكي تتم عملية القراءة لابد من

توافر عنصرين أساسين هما الرغبة في القراءة والإحساس بالقدرة عليها علاوة على الإحساس بأن ما يقرأ له فائدة .

ولأهمية القراءة على المستوى الدولي والقومي تجري بحوث كثيرة .

والذي يود أن يحصر عدد البحوث التي ظهرت في القراءة في الفترة الأخيرة فإنه يصعب عليه أن يقوم بذلك للسرعة الهائلة التي تجري بها هذه البحوث والكثرة المتزايدة في أعدادها وفي المؤسسات والجهات والمعاهد التي تقوم بهذه البحوث ، وللتنافس الواضح بين دول العالم في هذا المجال « **مجال القراءة** ».

ولذلك لابد من تحديد فترة زمنية وبلد معين لإحصاء هذه البحوث ، كذلك لابد من تحديد المرحلة التعليمية وتحديد نوع المهارة المطلوب البحث فيها ، حتى يمكن عد البحوث التي ظهرت فيها .

ومع هذا فإن الباحث المدقق في هذا المجال يرى أن هناك اتجاهًا عامًا بين دول العالم إلى الاهتمام بهذا الفن الرائع « القراءة » وإلى الاهتمام به منذ الطفولة المبكرة أي منذ دخول الطفل إلى الرياض ، ويرى ـ أيضاً ـ « أي الباحث المدقق أن هناك نظرة متجددة باستمرار في البحث في عملية القراءة حيث تأثر مفهوم القراءة بالمدارس النفسية واللغوية والتربوية التي ظهرت منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى الآن .

لقد بدأت الدراسات العلمية المنظمة لعملية القراءة منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر « ١٨٨٠م » وتأثرت باتجاهات البحث في علم النفس التجريبي وظل الأمر كذلك حتى السنوات الأولى من القرن العشرين حيث ظهرت المدرسة السلوكية ، ومنذ ذلك الحين بدا البحث ينتقل من العمليات العقلية للقراءة إلى غيرها من الجوانب السلوكية التي تتم في أثناء القراءة ، وفي الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن اهتم علم النفس التربوي بالقياس والاختبارات والتشخيص والعلاج وفي خمسينيات وستينيات هذا القرن اهتُمَّ

أكثر بتعريفات القراءة وشروطها وفي سبعينيات هذا القرن كان لعلم النفس المعرفي Cognition وعلم نفس النمو أثرهما البعيد في بناء النماذج المتعددة والأشكال المختلفة لنظرية القراءة .

كذلك كان لعملية المعرفة وعلم النفسي واللغوي واللغويين أثر كبير في تحديد ما نطلق عليه عملية القراءة ، لقد حاول أصحاب هذه الفروع المعرفية أن يعرضوا تحليلاً مفصلاً وخطوة بخطوة لعملية القراءة والعوامل المؤثرة فيها ، لقد ذكر هؤلاء أن هناك أنواعًا كثيرة للقراءة وما دامت هناك أنواع كثيرة للقراءة ، فلا بد أن يوجد ـ بالتالي ـ أساليب كثيرة لها "Styles" وتتعلق هذه النماذج أو الأساليب بعدة أمور وأشكال مختلفة وعوامل كثيرة تؤثر في القراءة؛ مثل الجوانب الإدراكية والمعرفية والاستراتيجيات المختلفة للقراءة والبدء في القراءة ، والقراءة الجيدة ، وحالات القراءة والقراءة الجهرية والصامتة ، ويمكن أن نضع النماذج تحت العناوين الآتية :

١- نموذج البدء بالتعرف والتحليل الصوتي ، والانتهاء بالفهم بدرجاته المختلفة "Bottom - Up Model" .

٢- نموذج البدء بالفهم بمستوياته المختلفة ، والانتهاء بالتعرف والتحليل الصوتي "Top-Down Model" .

٣- النموذج التفاعلي بين الفهم والتعرف "Eclectic-interactive Model"

ماذا يقول البحث التربوي عن القراءة؟

يقول « ديفيد بيرسون David Pearson » في عام ١٩٨٥م إن هناك ما يسمى بثورة الفهم « R .C » التي تتلخص في الانتقال من الرؤى التقليدية للقراءة القائمة على المدرسة السلوكية إلى الرؤى القائمة على علم النفس المعرفي لقد تناول علم النفس المعرفي الجوانب الآتية في عملية القراءة :

١- التعريفات القديمة والحديثة لعملية القراءة .

٢- نتائج الدراسات في علم النفس المعرفي المتعلقة بالقراءة أو التعلم .

٣- خصائص القراء الضعاف والمجيدين .

٤- المعالم الأساسية في بحوث القراءة .

٥- خصائص بيئات التعلم والتعليم المساعدة على التعلم .

٦- أدوار المدارس والجماعات في تنمية عملية القراءة .

القراءة وإبداع الأمم :

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو! هل نتوقع أن نكون أمة مبدعة أو منتجة دون قراءة؟ كيف نكون أمة عصرية دون قراءة؟

في المؤتمر الثالث والأربعين للجمعية الدولية للقراءة كان المحور الرئيس للمؤتمر هو : القراءة هي الباب الرئيس للتفاهم الدولي ، والقراءة علاوة على ذلك هي الباب الرئيس للإبداع ، ومن نافلة القول أن نذكر أنه ليس هناك أمل في أي تقدم ما لم نكن أمة قارئة .

ما الإبداع؟ الإبداع طريقة للتفكير والعمل ، أو إيجاد شيء يتسم بالأصالة وله أهمية من وجهة نظر الآخرين ؛ ويعني هذا أن أي طريقة جديدة لحل مشكلة ما ، أو استحداث منتج معين ، أو بناء قصيدة ، أو قطعة موسيقية عمل ابتكاري طالما كان ذلك من اكتشاف الشخص بداية .

وعندما يبتكر شخص شيئًا ما فإن هناك عنصرين لابد من توافرهما هما :

١- الاكتشاف اكتشاف فكرة ما ، أو خطة أو حل مشكلة .

٢- والعنصر الثاني هو البرهنة على صحة هذا الاكتشاف ، وإمكانية تنفيذه ، وكل عنصر من هذين العنصرين يتضمن مهارات معينة مثل :

- التخيل .
- تدوير الأفكار .
- مناقشة الأفكار .
- تقويم الأفكار .
- تعرف إمكانية التنفيذ .
- التنفيذ باستخدام منهج مناسب .

وتعتمد كل هذه العناصر على الخبرات السابقة في المجال الذي تم فيه الاكتشاف ، والعامل الحاسم في تراكم الخبرات وتنوعها هو القراءة .

وكما يقولون في الدراسات الأدبية تبريراً لاعتماد الأدباء بعضهم على البعض الآخر سواء في الأسلوب أم في الفكرة ما الأسد إلا مجموعة من الخراف المهضومة . . وبالتالي ما المبدع إلا مجموعة من الأفكار المقروءة ، وما الإبداع إلا هضم لهذه الأفكار وتمثيل لها بشكل جديد ، وما تاريخ العلماء العظام والمبدعين الكبار إلا صورة مكررة من الجد والاجتهاد والقراءة والمثابرة .

وفي إطار الحديث عن المجتمع المبدع والمبدعين ، لابد من الحديث عن المناخ العام المساعد على أن يتجه الأفراد كلهم إلى القراءة والإبداع ، والمناخ العام المساعد لا ينبغي أن يتوقف عن دعم الدولة ـ فقط ـ بل ينبغي أن يتعدى ذلك إلى دعم المؤسسات والأفراد الموسرين لمن يلمسون لديهم القدرة ، وإلى دعم نشر المعرفة بإنشاء المكتبات العامة ، وفي هذا السياق نضرب مثلاً « بأتدريو كار نيجي أو الأب أندي A Andrew Cornegie" الذي أتى إلى الولايات المتحدة من اسكتلندة وهو شاب صغير ، وكون ثروة هائلة من صناعة الصلب ، ثم عمل بعد ذلك على إنفاق معظم ثروته لإنشاء الجامعات والكليات والمنظمات التي تعمل من أجل السلام ، واستخدم ـ أيضًا ـ جزءًا من ثروته في بناء المكتبات ، وفيما بين ١٨٨٠م وعام وفاته ١٩١٩م بني « كار ينجي» . . ما لا يقل عن ٢٥٠٧ مكتبة في البلاد التي تتحدث بالإنجليزية وأكثر من ١٧٠٠ مكتبة منها في قرى ومدن الولايات المتحدة الأمريكية .

من أجل هذا يطلق عليه « الأب أندي» "Father Andy" ألا من سبيل لأن يحذو أغنياؤنا حذو هذا الرجل العظيم . . لا سبيل إلى ذلك ألا بالوطنية الصادقة والحب المجرد لمصر العزيزة ، وإذا كنا نود أن تكون أمة قارئة علينا أن :

١- نجعل التعليم مشروعنا القومي قائمًا على أساس المشاركة والنشاط لا على أساس القراءة من كتاب مقرر لا تتعدى في صفحاته مائة صفحة في كثير من الأحيان .

٢- وأن يصبح الكتاب رفيقًا وأنيسًا وجليسًا للصغار والكبار في أي مكان وفي أي زمان وتحت أي ظرف من الظروف .

٣- وأن يكون للعلم والمعرفة والتفوق فيهما السبق في تحديد مكانة الفرد ودوره في المجتمع وأن تعود للأنشطة الثقافية دورها وللصالونات الأدبية تاريخها .

٤- وأن نهتم بتعليم القراءة منذ مرحلة الرياض ، وأن تُبنَى اختبارات على المستوى القومي لتحديد المستوى المطلوب من القراءة لكل مرحلة من مراحل العمر ، وأن تحدد الصعوبات أولاً بأول .

٥- وأن يُهتَم بتشخيص الضعف في القراءة وبصفة خاصة في السنوات الأولى من التعليم قبل أن يصبح خطراً يهدد مستقبل التعليم كله في مصر ، ولماذا لا تهتم بما يسمى «عيادات القراءة» ولماذا لا نهتم بنشر الوعي بأهمية العلاج والوقاية أولاً؟

٦- اهتمام الأسرة بالكتب ، وبالقراءة للأطفال من أهم العوامل التي يمكن أن تساعد في تكوين أمة قارئة ؛ لأن الطفل الذي يأتي المدرسة ولديه اتجاهات إيجابية نحو القراءة يزداد حبة لها ويهواها وينمي معارفه من خلالها ، وتصبح القراءة عادة من الصعب أن يتخلى عنها في أي مرحلة من مراحل عمره .

وأخيرًا ليس غريبًا أن نكون أمة قارئة .

لقد كان المصريون القدماء ، يكتبون على باب المكتبات : «هنا غذاء النفوس وطب العقول» ، وكانت توضع المكتبات تحت حماية الآلهة .

رحم الله أحمد شوقي حين قال :

أخوك عيس دعا ميتاً فقام له ... وأنت أحييت أجيالاً من الرمم

والجهل موت فإن أوتيت معجزة ... فابعث من الجهل أوفا بعث من الرجم

وحين قال أيضاً :

الجهل لا تحيا عليه جماعة ... كيف الحياة على يدي عزريلا؟

وقد لخص في حديث رسول الله ﷺ هذه الدعوة «**لتكن أمة قارئة**»..

قال رسول الله ﷺ فيما روي عنه : «**اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك**».

قال أبو الدرداء ، أما الخامسة التي فيها الهلاك ، فهي معاداة العلماء والعياذ بالله ، ويعني هذا أن يشغل كل فرد نفسه بالعلم والمعرفة في أي صورة من صورهما ، وعلى أي حال من الأحوال . .

* * *